سلسلة رحلات ابن بطوطة

العدد ١

بداية الرحلة
ومدينة الأبواب الأربعة

نوال مهنى

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة
المــولــف : أ. نوال مهنى
تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيســـى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقـم الإيـــداع : ٩٩/٢٣٧٨
الترقيـم الدولـى : ISBN
977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجي الشهير بابن بطوطة القيام برحلة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكن معه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان ينزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحاب

الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبـــون به. وفى عصر ابن بطوطة لـــم يكـــن النـــاس يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجـــارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمراً شـــائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى الســـفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العـــالم القديـــم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائـــف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالـــها عـــدة

لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابن بطوطة رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بين بلد وآخر ولم يشغل نفسه بالعمل أو التجارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلته دينية اجتماعية ولم تكن من أجل كشوف جغرافية أو بحوث علمية. وكان عمر ابن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البلاد فأكرمه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحين انتهى من كتابتها أسماها (تحفة النظار فى

غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعل. وكان زمن الرحلة القرن الرابع عشر الميلادى، ويعتبر ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصو الوسيط ولا زالت أخبار رحلته العجيبة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفة

نوال مهنى

رحلات بن بطوطة

بداية الرحلة :

ابن بطوطة شخصية ظريفة طريفة عاشت فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وكان يهوى السفر والترحال ولذلك فكر فى أن يقوم برحلة عجيبة غريبة يزور فيها البلاد ويعرف أخبار العباد.

وفى عصر ابن بطوطة كان الناس يسافرون للحج أو للتجارة أو الأمور الهامة ولم يكن أحد يسافر للسياحة ولكن ابن



بطوطة كان يحب المغامرة ويعشق الرحلات والأسفار.

ولد ابن بطوطة فى السابع عشـــر مـــن رجـــب ســـنة ٧٠٣ هجريـــة أى الرابـــع والعشرين من فبراير ١٣٠٤ ميلاديـــة فـــى درب صغير فى مدينة طنجـــة بـــالمغرب، واسمه الحقيقى أبو عبد الله محمد إبراهيـــم الطنجى واشتهر بلقب ابن بطوطة ـــ حفـــظ القرآن الكريم وهو طفل صغير وبدأ يـــدرس الفقه على أيدى الشيوخ ولكن حبه الشـــديد للسفر منعه من إتمام دراسته.

وحينما فكر فى القيام بالرحلة خاف أن يمنعه والده ولذلك قرر الخروج لأداء فريضة الحج قاصداً أم القرى مكة المكرمة، ثم بعد ذلك يتوجه إلى حيث يريد من البلاد.

وبالفعل خرج برفقة بعض المسافرين ولم يكن معه سوى بضعة دنانير، وكان عصر ابن بطوطة يُدعى عصر الأولياء الصالحين وأهل الكرامات وتكثر فيه الزوايا والمساجد فكان ابن بطوطة ينزل ضيفاً عليها ويقيم فيها بعض الوقت بصحبة الشيوخ والأولياء، ولم يخطط ابن بطوطة

لرحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنـــده بين بلد وآخر، فكان حريصاً على زيارة مـــا يعرض له من بلاد لمشاهدة ما بها من معـــالم وأسواق ومساجد، فكان يتوجه حيـــث يجـــد وسيلة مواصلات من الـــدواب أو الســـفن أو المراكب.

واستمرت الرحلة خمسة وعشرين عامـــاً وبلغ طولها ١٤٠ ألف كم رأى خلالها مـــن الغرائب والعجائب والطرائف واللطائف مـــا لم يره غيره، وتعرض ابن بطوطة للـــهلاك عشرات المرات ولكنه تغلب على المصاعب

بسبب سلامة بدنه وقوة احتماله لأنـــه كـــان رجلا متين البنية موفور الصحة وكـــان إذا تعــرض للمــرض يتــداوى بالأعشـــاب وبالوسائل المعروفة فى عصره، وكان ابــن بطوطة فى أثناء رحلته يأكل ما يجده متاحــا من أنواع الطعام، وأحيانـــا لا يجــد شــيئا فيصوم أياما متصلة.

وأتم ابن بطوطة رحلته التـــى شــملت العالم الإسلامى كله ومعظم بلـــدان العـــالم القديم، وعاد إلى وطنه طنجـــة بـــالمغرب وقابل سلطان البلاد فأكرمه وأعجب بأخباره

المثيرة والحكايات المدهشة التى قصها عليه ابن بطوطة وطلب السلطان منه أن يقوم بكتابة الرحلة وتسجيلها.

ولما أتم ابن بطوطة كتابة الرحلة سماها ـ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجاب الأمصار ـ وبعد ما فرغ من تدوين أخبار الرحلة أمر السلطان وزيره عبد الله بن جزى بتلخيصها وصياغتها بأسلوب أدبى، وكان ابن جزى كاتبا وأديبا، وكذلك أمر السلطان بتسمية الدرب الذى ولد فيه ابن بطوطة فى مدينة طنجة باسم درب

ابن بطوطة، والحقيقة أن ابن بطوطة في رحلته وطوافه فى البلاد. أتقن عدة لغات مثل التركية والفارسية وبعض لغات الهند مما أعانه على المعيشة والتعامل مع أهل هذه البلاد، واهتم ابن بطوطة بذكر كل التفاصيل لأنواع المأكولات التى أكلها والملابس التى رآها وحتى الأمراض التى تعرض لها وطرق علاجها.

والحقيقة أنه كان مخلصاً للرحلة فلم يشغل نفسه بالتجارة والعمل وإنما كان همه السفر والسياحة فقط ــ وتعتبر رحلة ابن

بطوطة من أهم الرحــــلات. ويعتـــبر ابـــن بطوطة رحالة الإسلام فى العصر الوســـيط وكان من عادته إذا هم بالقيام برحلة إلى بلد من البلدان فتح المصحف وقـــرأ أول آيـــة تقابله فإن استبشر خيراً وتفاءل بدأ الرحلـــة وإن تشاءم عدل إلى بلد آخر وفعـــل نفـــس الشئ.

ورحلة ابن بطوطة طويلة طويلة بالقياس لهذا الزمان وهى أيضاً رحلة اجتماعية دينية فلم تكن من أجل أهداف سياسية أو كشـــوف جغرافية أو بعوث علمية، وإنما كانت مـــن

أجل معرفة الناس والوقوف على أحوالهم ومشاهدة المعالم ورؤية الغريب من العادات والتقاليد والأشياء. وبما أن الرحالة ابن بطوطة عاش فى القرن الرابع عشر وقام برحلته من حوالى ستمائة عام فسوف نرى أن خريطة العالم فى عصره كانت مختلفة عن عصرنا لأن تقسيمات الدول وكذلك أسماء البلدان تغيرت وقامت معالم جديدة وتهدمت بلدان قديمة. وبرغم ما بها من متاعب ومصاعب فهى رحلة شيقة ومثيرة وممتعة، وسوف نحكى أخبار هذه الرحلة



المثيرة المدهشة ومـــا بـــها مـــن غرائـــب وعجائب.

ابـــن بطوطـــة فـــى مدينـــة الأبـــواب الأربعة

بدأ ابن بطوطة رحلته بـــالخروج مـــن طنجة فى بلاد المغرب مع بعض المسافرين من التجار وبدءوا المسير بمحـــاذاة ســـاحل البحر الأبيض المتوسط من الغـــرب إلـــى الشرق وفى الطريق التقـــى بركـــب يضـــم مجموعة من الحجاج التونسيين فانضم إليـهم وسار معهم وكان عمره اثنتين وعشرين سنة

وكانت من عادة الحجاج فى ذلـــك الوقــت الخروج للحج فى أفواج وجماعـــات تجنبـــا للمخاطر، كما أن السفر مع الصحبة يـــهون متاعب الطريق وخاصــــة فـــى الســـفريات الطويلة.

وبالطبع كان المسافرون يحملون معـــهم طعامهم وشرابهم وكل لوازمهم، وخوفا مـــن النسيان كانوا يكتبون مـــا يحتاجونـــه فـــى الرحلة ويدونونه فى شكل منظومات شـعرية طويلة تحوى كل شئ حتى الإبرة والخيط.

المهم أن أبا عبد الله بن بطوطة سار مع هذا الركب حتى وصل إلى مدينة الأبـــواب الأربعة أى مدينة الإسكندرية.

وقف ابن بطوطة فى ميناء الإســكندرية مبهورا بجماله ورأى سورا عظيما له أربعة أبواب هى باب سدرة وباب رشـــيد وبـــاب البحر والباب الأخضر، وكان الميناء حافلا، بالتجارة والمراكب والسفن.

وأول ما لفت نظر ابن بطوطة فى ميناء الإسكندرية هو المنار الذى تضاء قمته ليـــلا فتهتدى به السفن حتى لا تضل الطريق فـــى



البحث، وهذا المنار العظيم أحـــد عجــائب الدنيا السبع وحاول صعود المنار ولكنه رأى أحد جوانبه متهدما فخاف من السقوط وعدل عن فكرة الصعود ولكن هذه المنارة تــهدمت بعد ذلك بفعل زلزال شديد وبنيـــت مكانـــها قلعة الإســـكندرية التـــى بناهــا السـلطان الأشرف، ودخل ابن بطوطة إلـــى المدينـــة ورأى أسواقها عامرة بالتجارة لأنها كـــانت مركزا تجاريا هاما بين آسيا وأوروبا، وكان تجار آسيا يحملون بضائعهم فوق المراكـــب ويعبرون بحر القلزم (البحر الأحمـــر) ثـــم

يبيعونها للتجار المصريين فينقلونها بدورهم إلى الإسكندرية برا، أما تجار أوروبا فكانوا يحملون بضائعهم من بلادهم إلى ميناء الإسكندرية مباشرة عن طريق البحر الأبيض وفى عودتهم يحملون البضائع المصرية إلى بلادهم.

وأسواق الإسكندرية حافلة بالتحف والتوابل والأقمشة الحريرية وفى ذلك العصر كانت مصر خاضعة لحكم المماليك، وكانت الدولة تحصل على أرباح كبيرة كضريبة من التجار مقابل المرور فى

أراضيها وتبادل التجارة معها ولذلك كـــانت الدولة المصرية عندما دخلها ابن بطوطـــــة غنية جدا وكانت الإسكندرية بالذات عـــامرة بالحركة والناس والفنادق والمطاعم.

ومشى ابن بطوطة يتفرج على شـــوارع الإسكندرية وفكر فــــى أن يــزور قـــاضى المدينة ويتعرف عليه وســـأل عـــن مكانـــه وعرف أنه موجود فى أحد المساجد يلقـــى دروس الفقه على طلبة العلم، وذهـــب ابـــن بطوطة لمقابلة القاضى ولكنـــه رأى شـــيئا عجيبا مدهشا.

فقد رأى قاضى المدينة يجلس فى محراب المسجد وعلى رأسه عمامة ضخمة ليس لها مثيل فى مشارق الأرض ومغاربها فقد فاقت ضخامتها كل عمائم الدنيا حتى كادت تملأ المحراب كله وسأل عن اسم القاضى فعرف أن اسمه عماد الدين، واكتشف ابن بطوطة أن معظم العلماء والفقهاء فى عصره يتركب اسمهم من كلمة ما مضافة إلى لفظ الدين مثل علاء الدين وفخر الدين وشمس الدين وقمر الدين وسيف الدين ونجم الدين وصلاح الدين. وقابل أحد

المشايخ فقال له يبدو أنــــك تحــب الســفر والرحلات فقال له ابن بطوطة نعم، فقال لــه الشيخ لابد لك إن شاء الله من زيارة أخـــى فريد الدين فى الهند وركن الدين فى الســـند وبرهان الدين فى الصين فأبلغهم ســلامى — وتعجب ابن بطوطة من كلام الشيخ لأنه لــم يكن ينوى زيارة هذه البلاد البعيدة والغريـب أن ابن بطوطة زار هذه البلاد بعــــد ذلــك بسنوات ورأى هؤلاء الأشـــخاص الثلاثــة وأبلغهم سلام الشيخ وهم بالطبع ليسوا إخــوة أشقاء ولكنهم إخوتـــه فـــى الديــن. وفـــى



الإسكندرية زار عمود السوارى الذى بنـــاه الإمبراطور الرومانى ثـــم زار قـــبر أبـــى العباس المرسى ثم قبر أبى الحسن الشـــاذلى وأثناء إقامته فى الإسكندرية عـــرف ابـــن بطوطة أن مدينة الإسكندرية بناهـــا القـــائد اليونانى العظيم الإسكندر الأكبر وهو ابـــن الملك فليب المقدونى ملك مقدونيـــا ببـــلاد اليونان القديمة وعرف عن الإسكندر الأكـبر أنه كان مغرما ببناء المدن وخصوصا علـــى شواطئ البحار فكلما غزا دولة ودخلها أنشـأ

فيها مدينـــة جميلـــة تحمـــل اســـمه مثـــل الإسكندرية والإسكندرونة.

وكان ابن بطوطة شغوفا برؤية العلمـــاء ومشايخ التصوف حريصا علــــى زيارتـــهم والتقرب إليهم والإفادة من علمهم والتـــبرك بهم وهم بدورهم يكرمون ضيافته ويحسنون إليه فيقيم فى زواياهم وفى إحدى المـــرات زار ابن بطوطة أحد الشيوخ ويسمى الشـــيخ المرشدى فى زاويته وبـــات فـــوق ســـطح الزاوية ورأى فى منامه حلما عجيبا وعندمـــا صحا من نومه لم يخبر الشيخ بما رأى فـــإذا

بالشيخ يقص عليه أخبار الحلم كمـــا حـــدث فعجب ابن بطوطة من علمه بالحلم. وإلـــــى جانب الزوايـــا التـــى يخصصـــها شـــيوخ التصوف للعبادة والعلم واستقبال الضيـــوف كانت توجد التكايا (جمع تكية) وهذه كـــانت تقيمـــها الحكومـــات لاســـتقبال الغربـــــاء واستضافتهم، أحيانا يلجأ ابن بطوطة إلى أن يقيم فى المدارس فلم يكن لديه مـــال حتـــى يدفعه فى تأجير المنازل ليبيت فيها، وفــــى عصر ابن بطوطة كـــانت مصـــر مليئـــة بالزوايا وكانت تسمى الخوانق (جمع خانقاه)

وكان الأمراء يتنافسون فى بنـــاء الزوايـــا وتعميرها.

وكان ابن بطوطـــة شـــديد الإعجـــاب بالمصريين قال إنهم أهل طـــرب وســـرور يميلون إلى المرح والمزاح ويحبون الاحتفال بالمناسبات والأعياد والشىء الوحيد الذى لـم يعجب ابن بطوطة فى الإسكندرية هو والـــى المدينة فقد كان منحازا للأجانب حيث كـــان بالإسكندرية جاليـــة كبـــيرة مـــن الإفرنـــج معظمهم من التجار، وقد شاهد ابن بطوطـــة بنفسه مشاجرة بين أهل المدينـــة والتجـــار

الإفرنج فتدخل الوالى لصالح التجار الأجانب لحرصه الشديد علـــى إرضائـــهم وتـــأمين مصالحهم لأنهم مصدر ثروة كبيرة للبـــلاد. وبعد أن تجول ابـــن بطوطـــة فـــى مدينـــة الإسكندرية ورأى كل ما فيها مـــن معـــالم وأسواق وشوارع قرر الرحيل إلى بلد آخر.

☆ ☆ ☆